رسائل الاستانة

(١٠) ما علينا وما لنا

لما اطلعنا ونحن في الاستانة على ما اطلعنا عليه مما ذكرنا طرفاً منهُ في مقالاتنا السابقة اعملنا النظر في مقارنته ومقابلته لنستخرج ما يوافقنا ومالا يوافقنا فيه وتبني رأينا عليه

فنصبنا ميزان العقل والحكم ووضعنا في الكفة الواحدة من كفتيه

(١) المصاعب والمتاعب التي لا بد ان تنجم عن الاختلاف في الاميال والآراء والافكار بين العثمانيين من رجال تركيا الفتاة ورجال تركيا العجوز

(٢) الاخطار والمشاكل والمصاعب التي لا بد منها بسبب اختلاف العناصر والاديان

(٣) الاخطار والمصاعب التي لا بد منها لكون النهضة الدستورية الحالية لم تقم في الحقيقة الاَّ باتحاد ضباط الجيش ولا تدوم الاَّ اذا دام اتحاد ضباط الجيش - فاساس كيانها وضمان دوامها هو اتحاد الجيش على حفظها

(٤) القصور والتقصير اللذين لا بد منهما لكون السواد الاعظم من الامة العثمانية يجهل الدستور ومزاياهُ وهو غير مستعد لهُ الاستعداد الكافي ولكون معظم مأموري الحكومة قد ربوا وشبوا على النظام الاستبدادي في الاحكام ولم يألفوا النظام الدستوري - ولكون الرجال الدستوريين الأكفاء قلالاً في السلطنة حتى كان أكثر الذين يحدثوننا في الاستانة يشكون من قلة الرجال

(٥) عواقب الخلل الهائل الذي استحوذ على اعمال الدولة في بلادها كلها حتى صيَّر بلادها مثلاً في التأخر وسوء المآل

(٦) المصاعب والمتاعب التي لا بدَّ منها بسبب قلة المال وفقر الحال وقلة الاشغال - والمشقات والانتقال التي لا بد من تحملها في اصلاح بلاد واسعة الارجاء ممتدة الاطراف مفتقرة الى الاصلاح كل الافتقار في كل ولاية ومتصرفية وقضاء وناحية

ووضعنا في الكفة الثانية من كفتي الميزان الاسباب والعوامل الحافظة والمؤيدة للدستور والساعية في ادامة هذه النهضة الدستورية واجراء الاصلاح المأمول وهي

(١) جلالة السلطان محمد الخامس بشهادة الثقات الذين عرفوا جلالتهُ وعاشروهُ واطلعوا على نياتهِ ورغباتهِ في حالات شتى من حالاتهِ - وحسبنا ان نذكر ثقة منهم حتى يحكم

القراء بقوة ملاحظته ودقة مراقبته وصحة حكمه وهو سمو الخديوي المعظم عباس باشا الثاني فقد أكد لنا سموه صحة كل ما شاع وذاع عن تمسك جلالته بالدستور وتباهيه بان يلقب بالسلطان الدستوري واخلاصه في تأييد كل انصار الدستور وشد ازر كل السابقين في اصلاح سلطنته وتحسين حال دولته · وشهد سموه مع ذلك ان جلالته شديد الورع والتقى كثير التدين والتعبد عن اعتقاد ثابت وايمان صحيح يغار على دين الاسلام غيرة صادقة خالصة من كل شبه ريب كما يغار على الدستور ويحب الخير لامته وتبعته حباً صحيحاً أكيداً ويود الحسنى لكل الناس · وقد ادرك الناس حسن صفاته هذه فتعلقوا به وجعل حبهم له يزداد يوماً فيوماً · وقد شهدنا نحن ايضاً ما يؤيد ذلك حين وضع جلالته حجر الزاوية في مدفن شهداء الحرية من الجنود العثمانية يوم الاحتفال بعيد الدستور في ٢٣ يوليو الماضي فقد كنا في وسط الجماهير التي تنظر الى جلالته وتهتف له وهو يمر بعساكره فما كنا نسمع من افواههم الا العبارات الدالة على حبهم له وتعلقهم به لحسن مناقبه بخلاف العبارات التي كانوا يفوهون بها مقرونة باللعنات في كلامهم عن عبدالحميد الخ · وكذلك في حفلة السلاملك يوم الجمعة في ٣٠ يوليو فقد كنا واقفين مع وجيه من اصدقائنا في الحديقة الفاصلة بين سراي دولمه بغجه حيث يقيم جلالته والجامع الذي يصلي فيه فننتظر خروجه في موكبه من السراي الى الجامع وقد اخبرنا صديقنا ان حفلة السلاملك اصبحت في عهد جلالته على غاية من البساطة الدالة على حسن الذوق وبغض التخفيفة بخلاف ما كانت عليه من الابهة الزائدة والتخفيفة الباطلة والعظمة المتجاوزة حد كل ذي ذوق مهذب في زمان عبدالحميد · فلما خرج جلالته ومر بموكبه من امامنا رفع يده الى جبينه ليحيي الجمهور وقد اطلق لحيته فزادت منظره جلالاً وكمالاً فلم نشعر الا ورجل عجوز بجبة خضراء قد هجم على المركبة المذهبة التي كان يسوقها حوذي بثياب حمراء مقصبة ويجرها جوادان كريمان والقى فيها ورقة كانت بيده فاراد جلالته ان يتلقفها فافلتت من يده وسقطت عند قدميه في المركبة فاكب عليها مستعجلاً كمن يحاول ان يقبض على طائر قبل ان يفر من بين يديه ثم رفعها وطواها وسلمها الى رمزي بك ياور له لكي يعطيه اياها بعد رجوعه من الجامع

فابتهجت نفسنا بهذه الغيرة الفطرية التي بدت من جلالته على مصلحة رجل فقير من رعيته وبهذا الاهتمام الذي ظهر من جلالته طبعاً بلا تصنع ولا تكلف · والتفتنا الى الرجل الذي القى العريضة في المركبة فاذا اربعة من رجال البوليس قد احدقوا به واخذوه الى جانب وجعلوا يسألونه عن اسمه وبلده وصناعته الخ فعلمنا انه رجل من الاناضول وسمعنا

واحداً من رجال البوليس يلومهُ قائلاً لماذا فعلت هذه الفعلة فارتعجنا وسط الحفلة ولماذا لم تعطني عريضتك فكنت اقدمها عنك . فنظر اليهِ الرجل مغضباً وقال وما لك ولي . انا قدمت عريضة الى سلطاني وسلطاني قبل عريضتي مني فما دخلك بينهُ وبيني . فلم نتمالك عن الضحك وانصرفنا ونحن نقول ما دام هذا اعتقاد العوام في السلطان فلا ريب في انهم يحبونهُ ويكرمونهُ ويطيعونهُ كما يطيع الابناء آباؤهم

وقد قال لنا الجناب العالي ايضاً ان جلالة السلطان يدهش الذين حولهُ والذين يعاشرونهُ ويسمعونهُ بمقدار ما احاط بهِ علماً في هذه السنة من الشؤون السياسية واحوال السلطنة العمومية بعد ما قضى ثلاثاً وثلاثين سنة من عمرهِ مقتصراً في علمهِ على اخص المسائل الخصوصية ومضطراً الى عدم السؤال عن مسألة من المسائل العمومية . واشار الى جوابين اجابهما جلالتهُ في موقف حرج من المواقف الدقيقة السياسية فادهش بهما سموهُ وفخامة الصدر الاعظم معاً لما تضمناهُ من حسن التخلص من بعض المسائل الوعرة الدقيقة

هذا ولا يخفى ان كملة جلالتهِ تزداد نفوذاً يوماً فيوماً وان منزلتهُ تعلو في النفوس عاماً فعاماً كما هو شأن الملوك والسلاطين كلما طال زمان ملكهم . فحبهُ الخالص للدستور وغيرتهُ الخالصة على تأييدهِ وشد ازر انصارهِ من التوفيقات العظيمة التي وفقت بها الامة العثمانية ومن الاسباب التي تقوي الرجاء في النجاح واجراء الاصلاح

(٢) مباحثة شيخ الاسلام وغيرهُ من اكابر العلماء والائمة فان ميلهم الى الدستور واضح كميل جلالتهِ . ورغبتهم في تأييد انصارهِ ومساعدتهم لهم على الاصلاح واضحان اليوم وضوح الصباح . قال لنا مباحثة شيخ الاسلام لما تشرفنا بمحادثتهِ في المشيخة الاسلامية يوم الخميس في ٣٠ يوليو الماضي . اني واثق بان الاستبداد قد زال وعودتهُ محال لان الملة كلها تريد الدستور وتكره الاستبداد والعلماء لا يريدون الا ان تكون امور الدولة شورى والطبقة العليا كالطبقتين الوسطى والسفلى تريد الدستور وتطلب الاصلاح والتقدم والترقي . وذلك ليس بشفاهها فقط بل من صميم افئدتها ايضاً فرغبة الجميع خالصة في اصلاح امورنا وحسن النية موجودة عند الجميع الآن

وهذه الاقوال وغيرها مما سمعناهُ من فم مباحثهِ يمكن لاهل مصر ان يسألوا مباحثهُ عنها ويسمعوها من شفتيهِ متى مر بهذا القطر فاننا لما اظهرنا لمباحثهِ ما للمشيخة الاسلامية الجليلة من علو المقام والاكرام في نفوس علماء مصر وعامتها قال انهُ يرجو ان يحج قريباً فيمر بمصر في عودتهِ من الحجاز ويشرف بمصر وعلمائها . وكان يعبر عن مرادهِ باللغة العربية الفصحى كما

فعل سائر الذين اجتمعنا بهم من علماء الاستانة وازمير فانهم يفهمون اللغة العربية المعربة ويعبرون عن مرادهم بها ولكنهم لا يفهمون اللغة العلمية

والمعاني التي سمعناها من فم شيخ الاسلام في حديث دام نحو نصف ساعة سمعناها بمزيد الشرح والاسهاب من العالم الفاضل مصطفى افندي فوزي مشاور الحقوق في نظارة المالية ومعلم المجلة الشرعية في مكتب النواب الشرعيين في الاستانة . وقد رافق حضرته حضرة جلال الدين افندي معلم مكتب الصنائع ومكتب حديقة المعارف بازمير على ان جمهور العلماء يؤيد الدستور ظاهراً وباطناً ويطلب الاصلاح ويرغب في التقدم والنجاح وان العلماء ساعون في ذلك ضمن الدائرة المختصة بهم وعلى قدر طاقتهم وكل يوم يمرُّ يزيدون مجاهرةً بذلك وينفون كل ريب من نفوس العامة في كون الدستور اصلح لهم وكون الاصلاح واجباً لسعادتهم ورفاهتهم

(٣) القوات العسكرية فقد قدمنا انها في اساس هذه النهضة الدستورية وان اتحادها هو الشرط الذي لا غنى عنهُ لدوامها ولبلوغ النجاح بها . ومن حسن التوفيق ان هذه القوات العسكرية كلها على اختلاف درجاتها وطبقاتها اصبحت بحيث تعد شرفها وتعدها وفخر كل كبير وصغير من رجالها قائمة بحفظ الدستور وبالنجاح في الاصلاح وترقية شأن الدولة والامة فاصبح اكبر مطمع لها واعظم شيء تطمح اليهِ ابصارها حفظ الدستور وشرف السلطنة واصلاح احوال الدولة والامة . فهذا الافتخار يكون رجال الجيش هم سعيدي الدستور وحماتهُ وبانهم وركن الاصلاح في السلطنة يغلب حب الافتخار بالرئاسة الشخصية والاطماع الذاتية فيحفظ الاتحاد بين ضباط الجيش ويقي من انقسامهم وانشقاقهم سعياً وراء الغايات الخصوصية وقضاء للمآرب الذاتية كما يستدل عليهِ الانسان من اقوال الضباط انفسهم . وحسبنا ان نورد هنا طرفاً من اقوال محمود شوكت باشا كبيرهم في حديث جرى لنا معهُ بالسر عسكرية صباح الخميس في ٢٩ يوليو . قال ان العود الى الاستبداد محال وكلنا نحن رجال الجيش متفقون على ان نفدي الدستور بدمائنا ونحسب ان وجودهُ ودوامهُ وتقدم بلادنا في زمانهِ اعظم فخر لنا . ونحن باذلون الآن جهدنا حتى لا نترك سبيلاً الى حدوث ما يكدر الصفاء او يقف في طريق الاصلاح . نعم اننا اطلنا مدة الاحكام العرفية الى شهر مارس القادم كما قلتم ولكن اي بلاد لم تطل مدة الاحكام العرفية فيها اعواماً بعد الحرب او الانقلاب فقرنسا ابقت الاحكام العرفية عدة سنين بعد حربها مع المانيا ونحن ننتظر ان تحصل عندنا التنسيقات قريباً فيخرج بها الوف من الخدمة وكذلك ان تنزل درجات كثيرين من اكابر الضباط والموظفين قلا

يستغنى عن الاحكام العرفية في مثل تلك الاحوال وان كانت احكامنا العرفية غير ثقيلة الوطأة على الاهالي الآن

فقلنا نعم ولكن التجار يقولون انها تؤثر في التجارة وتوقف حركة الاشغال قال الامل ان تدور الحركة وتروج الاشغال قريباً فالناس يريدون حدوث كل امر حسن سريعاً ولكن لا بد من الصبر فكل شيء يجيء في ميعاده . وكان يتكلم باللغة العربية واللهجة البغدادية بلكنة تركية

(٤) مجلس المبعوثان فانه سبب قوي من اسباب الرجاء في مستقبل الزمان . وانما قلنا في مستقبل الزمان حتى لا نخالف اهل الاستانة في ما يقولونه عنه الآن . فان كثيرين من رجال الدولة والموظفين من العثمانيين والاجانب يحسبون ان مجلس المبعوثان لم يحقق آمالهم ولا بقي بالغرض المطلوب منه . اما نحن فنعتقد انهم يظلمونه بحكمهم هذا عليه وانهم يطلبون منه ما لا يجوز ان يطلب من مجلس فضلاً عن انسان . فليس من العدل ولا العقل ان يطلب من مجلس عقد اول مرة في العمر ما يطلب من مجلس مرت عليه القرون كمجلس انكلترا او فرنسا مثلاً او ان ينتظر من اعضائه الذين لم يرق اكثرهم منبراً للخطابة الا فيه ان يضارعوا النواب الذين اشتهروا في العالم بالبلاغة في الخطابة . بل الواجب ان يحفظ ما فعله المجلس في هذا العام ويقارن بما يفعله في العام المقبل ويحكم عليه بما تدل عليه تلك المقارنة . فنحن املنا قوي ان مجلس المبعوثان يحقق الآمال ويكون اعظم عامل من عوامل الرجاء في التقدم والارتقاء واصلاح الاحوال . وقد بان بعض فضله في اعماله وفي اعمال وفده الذين عززوا مقام الدولة عند الانكليز وتركوا لمجلسهم ذكراً عطراً بينهم

واملنا اقوى في ان نواب العرب يحققون آمال قومهم من كل وجه في العام المقبل فاننا بعد ما اجتمعنا بجماعة من اكابرهم واصدقائنا الافاضل مثل عطوفة شفيق بك العظم مبعوث دمشق وحضرات العالم الفاضل الشيخ عبد الحميد الزهراوي مبعوث حمص ورضى بك الصلح مبعوث بيروت والحسيني بك مبعوث القدس الشريف وغيرهم واطلعنا على ما ينوونه لخدمة اهل بلادهم علاوة على ما فعلوه في هذا العام ايقنا انهم هم واخوانهم الذين كانوا غائبين عن عن الاستانة مع الوفد يكونون اعظم حماة الدستور واعوان رجال الاصلاح في البلدان العربية

(٥) جمعية الاتحاد والترقي فانها الآن روح النهضة الدستورية والمحرك الاول لآلة الاصلاح العمومية . وقد كثر انتقاد الناقدين لهذه الجمعية وقام لها خصوم كثيرون ولكننا نعتقد ان خصومها يوافقون انصارها على ان الافعال العمومية التي فعلتها من يوم اعلان الدستور

الى هذا اليوم تدل بوجه الاجمال على ان رجالها ذوو حزم واقدام وثبات وحسن سياسة ورغبة خالصة في حفظ الدستور وخير الدولة والامة . ولا نقصد بهذا الكلام ان نعارض خصومها وانما نقصد ان نذكر ما يستنتجهُ الانسان من اعمال النظر في قراراتها واعمالها بوجه الاجمال . فقد يمكن ان تكون اخطأت في معاملة بعض الافراد او خالفت خطتها العمومية في بعض الامور الجزئية . كل هذا ممكن وسبحان من تنزه عن الغلط وتفرد بالكمال ولكن ما رأيناهُ منها بوجه الاجمال يربي في النفوس حسن الثقة بها وبمقاصدها وبمقدرة رجالها وبشرف غايتها . فان كانت هذه الجمعية غير الجيش او لم يكن جزءٌ من الجيش الجزءَ الاهم منها فهي ليست دونهُ شأنًا واعتبارًا من وجوه كثيرة

(٦) حسن النية والرغبة الخالصة في حفظ الدستور والاصلاح عند اكابر رجال الدولة الحاليين وعند ذوي الشأن في السلطنة وعند جمهور الخاصة من العقلاء والمتعلمين والمتهذبين المجردين عن المآرب الخصوصية في الامة العثمانية . فما لا ريب فيهِ عندنا ان هؤلاء العثمانيين يريدون الدستور ويطلبون الاصلاح ويرغبون فيهِ رغبة خالصة وتية حسنة خالية من كل ما يضر الدولة

(١١) النتيجة

اذا احسنا اعتبار ما علمنا وما لنا مما وزناهُ بميزان العقل والاعتبار في مقالتنا الماضية استنتجنا ان الحالة التي نحن فيها الآن لا تزال حالة تجربة واختبار فيمكن ان تنتهي باجراء الاصلاح المطلوب وبلوغ النجاح المرموم كما هو المأمول ويمكن ان تنتهي بالفشل والاخفاق وخيبة المساعي والآمال لا سمح الله . وقد سألنا حضرة احمد رضا بك رئيس مجلس المبعوثان في آخر اجتماع اجتمعنا بهِ في ذلك المجلس عما وجدنا بزيارتنا للاستانة فاجبناهُ بنحو ما استنتجناهُ آنفًا فظن ان استنتاجنا لا بد ان يكون من تأثير كلام الاجانب معنا قائلاً ان كثيرين منهم يقولون ان العثمانيين والمبعوثان يأتون في حيز التجربة والامتحان حتى الآن والحال ان زمان التجربة والامتحان قد مضى وان الاصلاح اضحى امرًا مقررًا والنجاح حقيقة ثابتة جلية كالصبح للعيان

ولعلنا ان ما استنتجناهُ انما استنتجناهُ مما رأيناهُ وما سمعناهُ من العثمانيين قبل الاجانب اذ كان اكثر كلامنا مع العثمانيين والقليل منهُ مع الاوربيين اتخذنا قول احمد رضا بك هذا حجة على صحة استنتاجنا لاننا لم نكن نعلم انهُ مطابق لاستنتاج الاجانب قبلما سمعنا ذلك

منهُ وعذرناهُ على اقتناعهِ بان زمان التجربة والامتحان قد مضى وانقضى وان الاصلاح والنجاح اصبحا امرين ثابتين اكيدين لعلمنا انهُ في وسط الحركة الاصلاحية وفي مركز النهضة الدستورية . فلا يكاد يرى او يسمع الاَّ ما كان موافقاً لها وما يشعر بان الناس عموماً معترفون بمجدوتهما ومتحققون حصولها فلذلك يحب كما يحب كثيرون من رجال تركيا الفتاة ان الحالة طبق المرام وانهُ ليس في الامكان اصلح مما هو كائن . مع ان رجال تركيا العجوز مثلاً يرون ان الحالة مؤدية الى الاضمحلال وانهُ ليس في الامكان اسوأ مما هو كائن كما ذكرنا في احدى مقالاتنا السابقة . ولكنا نظن ان من يمم النظر عن الجانبين ويتبع جادة الاعتدال بين القولين يوافقنا على اننا لا نزال في حالة التجربة والامتحان

واستنتجنا ايضاً من زيارتنا للاستانة ان اصلاح السلطنة العثمانية اعسر اصلاح في العالم وان النجاح فيهِ يقتضي ان يكون المصلحون متكملين الصفات التي اتصف بها اعظم المصلحين في العالم وان يكونوا من ابرع من قام على وجه الكرة الارضية في السياسة الخارجية والادارة والسياسة الداخلية . وقد كنا نعلم ذلك قبل زيارتنا للاستانة ولكنا بعد ما زرناها ورأينا ما رأينا وسمعنا ما سمعنا تجلى لنا هذا الامر بصورة واضحة جلية يرى الانسان فيها كل مصاعبهِ ومتاعبهِ واخطارهِ ومشقاتهِ . وثبت لنا ان هذا الاصلاح الكبير الشاق العسير لا يتم في عام او عشرة اعوام بل لا بد لبلوغهِ الغاية المطلوبة من الكمال من زمان طويل نتوالى عليهِ الاحقاب . لانهُ ان كان اصلاح الديار المصرية قد استغرق ربع قرن حتى بلغ هذه الغاية التي لا تزال بعيدة عن الكمال المطلوب بعداً كبيراً ومصر ليست في المسلحة الا ولاية من ولايات تركيا الكبيرة ولا نظير لما بينها في سرعة المواصلة وجودة التربة وسهولة المواس وملاسة القياد وقد جرى الاصلاح فيها بارشاد وسعي وجدّ من اقدر دولة استعمارية واخبر امة في الاصلاح بين الامم الاجنبية . فما بالك بالسلطنة العثمانية وهي جامعة لكل المصاعب والمشاق التي يمكن ان تحول في سبيل الاصلاح واهل البدو فيها يبلغون جانباً عظيماً من اهل الحضر وقد باتت مساحة مشعة منها براري وقفاراً

فهل يستطيع العثمانيون هذا الاصلاح وهل يبلغون المطلوب فيهِ . هذه مسألة نهتدي الى الجواب عنها من اختبار غيرنا من الامم . قال الناس بعد الاختبار لا مستحيل على اهل الثبات والجد ولاقدام . وقال بونابرت وانعم بهِ من قائل المحال كلمة واجبة الحذف من قواميس البشر . فلماذا يستحيل علينا ما لم يستحل على سوانا اللهم اذا سرنا اليهِ في طريقهِ ووطنا النفس على ان لا نرجع عنهُ الا بعد بلوغهِ

اما الطريق اليه فمفتوحة الآن امامنا وليس من يعترض سيرنا فيها . فقد ابنا ان الذين يتقدمون ويؤخرون في الدولة من جلالة السلطان فنازلاً راغبون في الاصلاح رغبة حقيقية ويريدون النجاح باخلاص وحسن نية . فليس فيهم من يعارض في الاصلاح او يصدّ عن النجاح . واما العزم على بلوغ النجاح وعدم الرجوع عنهُ فالذي ظهر لنا كما ظهر لسوانا ان رجال الجيش ورجال الاتحاد والترقي عازمون على ذلك عزماً اكيداً وما رأينا من افعالهم في السنة الماضية يقوي املنا في انهم يسيرون اليهِ في طريقهِ ولا يحيدون عنها في المستقبل . لانهُ يصعب علينا ان نصدق ان قوماً دلت افعالهم على عقلهم وذكائهم وعلى رغبتهم في لم شعث الامة العثمانية والجمع بين عناصرها يرتكبون اليوم او غداً خطاء يفسد كل ما يصلحونهُ ويخرب كل ما يبنونهُ . وذلك بان يسعوا في تغليب قوميتهم على قومية سواهم وفي جعل الامة امة تركية لا امة عثمانية . لاننا لا نقدر ان نتصور انهم يجهلون اليوم ما يعلمهُ اقل الناس علماً وهو ان السعي في تغليب قوميتهم هذه سعي في قلب سنَّة طبيعية عجز اقدر الناس عن قلبها في هذا العصر — عصر النور والعلم والحرية . وانهم اذا سعوا فيهِ اضاعوا سعيهم سدًى من جهة واقلموا قيامة العناصر كلها عليهم من جهة أخرى فكانوا كالساعي الى حتفهِ بظلفهِ اذ اصدق اصدقائهم ينقلب يومئذٍ عليهم ويقاومهم مقاومة الد اعدائهم ولا لوم عليهِ في ذلك ولا تثريب بل اللوم كلهُ يكون عليهم

ولهذا نعتقد ان رجال الاصلاح يجعلون اجتناب هذا المأزق نصب عيونهم من اول امرهم ولا يقتصرون على اجتنابهِ بل يسعون ايضاً في اظهار حسن نيتهم من جهة كل عنصر من عناصر امتهم بان يشركوا نخبة رجالهِ معهم ليس في المشورة والرأي فقط بل في السياسة وتدبير الامور ايضاً كلما سنحت لهم الفرصة ووافقت الاحوال وبذلك يتلافون مصاعب اختلاف العناصر على قدر الامكان

هذا ومهما كان الخطر والضرر في تعدد العناصر واختلاف العقائد فاجتنابهما واجراء الاصلاح معهما ممكنان بالسياسة وحسن التدبير . ولنأخذ لذلك مسألة العنصر الرومي مثلاً فقد ابنا في ما مضى انها اشد مسائل العناصر خطراً واصعبها علاجاً ولكننا نرى مع ذلك ان تدبيرها على وجه يؤمن بهِ شرها ليس من المحال . فالروم بشر وهم يقدمون المصلحة على سواها من الاعتبارات كسائر البشر . فمتى رأوا اننا اصلحنا الاحوال ونظمنا الامور واجرينا العدل وروجنا الاشغال وفتحنا الابواب لكسب المال واعلينا مجد الدولة وجعلنا رعيتها محترمة مكرمة حيث حلت كما هو شأن الدول المصلحة القوية ادركوا الفرق العظيم بين حالهم وحال

اخوانهم اليونان التابعين للحكومة اليونانية ففضلوا الانتماء الينا على الانتماء اليهم وتعلقوا بنا دون سوانا . واذا طردناهم من النافذة عنا عادوا من الباب الينا لعلمهم ان انتماءهم الينا انفع لهم بكثير من انتمائهم الى الحكومة اليونانية وان ما يجدونهُ من رغد العيش والعز والنعيم في جناب الدولة العلية اشهى بكثير من الجامعة اليونانية . وقد ذكرنا رأينا هذا امام رجل من اشهر انصار الاتحاد والترقي في الاستانة فخالفنا فيهِ وقال ان الروم لا يرضيهم غير الانتماء الى حكومة اليونان على كل حال واستشهد على ذلك باهل كريت واصرارهم على الانتماء الى اليونان مع ان الدولة العلية اباحت لهم ملءَ الاستقلال في امورهم الداخلية وانما طلبت منهم الاعتراف بالسيادة العثمانية . ولكننا نرى انهُ لا يردُ بكريت على رأينا لعدم مشابهة حالتها للحالة العثمانية التي فرضنا انها ترغب الروم في الانتماء الينا بعد اصلاح امورنا . فكريت ولو استقلت في شؤونها الداخلية لم تصر حالها افضل من حالة اليونان حتى تنسيها الجامعة اليونانية . وانما يصح الاستشهاد بها متى بلغت حالة تضارع الحالة التي فرضنا ان الروم يبلغونها بعد تقدم الاصلاح عندنا . واستشهدنا نحن على صحة رأينا بالمصريين في عهد المحتلين . فالمحتلون ينتمون الى امة اجنبية عن المصريين جنساً ولغةً ودينًا واخلاقاً وعادات وقد حاربت المصريين واحتلت بلادهم بعد محاربتهم واستلمت زمام امورهم . فاتفقت الاحوال كلها على ايقاد نار البغض في صدور المصريين للمحتلين وعلى توسيع شقة النفور بينهم . ومع ذلك نسي جمهور المصريين ذلك كلهُ وهان عليهم احتلال المحتلين لبلادهم لما اصطلحت احوالهم وارتقت امورهم وشعروا بنعم الاصلاح الذي تمَّ بمعونة المحتلين وارشادهم . واصبحوا يعدون المحتلين من المحسنين لا من المسيئين . فتغلب الانكليز بالاصلاح الذي اجروهُ في مصر على اسباب النفور والجفاء والحقد والبغض التي كانت تبعد المصريين عنهم . ونحن نتغلب بالاصلاح ايضاً على كل ميل في الاروام الى الجامعة اليونانية وهذا التغلب أيسر من تغلب الانكليز على اميال المصريين لاسباب لا تخفى على اللبيب

وكذلك يتقي ما في اختلاف الاديان من المشقات والعقبات في سبيل الاصلاح ومن الخطر والاصرار على النجاح باجراء العدل والمساواة والجري على مقتضى الدستور قولاً وفعلاً . وقد اظهر المصلحون العثمانيون رغبتهم في ذلك وعزمهم عليهِ والامل ان لا يحيدوا عنهُ مهما اضطروا الى تعديل خطتهم الاصلية مراعاة لاوهام العوام . فالظاهر ان عدم استعداد السواد الاعظم من الامة العثمانية لقبول المزايا الدستورية دلَّ المصلحين على صعوبة تنفيذ كل شرط من شروط الدستور دفعة واحدة . فقد اظهر التحقيق في حوادث ادنه ان اعظم سبب هاج

الترك على الارمن واستفزهم الى قتلهم هو انهُ بعد ما أُعلن الدستور جعل جهلاء الارمن يتباهون بساداتهم لاعظم من في بلادهم ويسيرون مرحاً وهم يشمخون بانوفهم ويرفسون الارض بارجلهم ويتحدثون بالاستقلال . ومضى الزمان الذي كانوا فيهِ يذلون لغيرهم ونحو ذلك من الاقوال والافعال التي كان الترك يحسبونها تحدياً لهم او تعييراً واهانة فيغضبون منها ويسخطون على الارمن بسببها حتى تعاظمت الاحقاد بين الفريقين وجرى ما جرى مما دلَّ على انهما لم يدركا روح الدستور ولذلك حوَّلا نعمة المساواة الى ضد المقصود منها فجنيا الشر منها عوضاً عن ان يجنيا الخير

ونقل الينا ونحن في الاستانة انهُ لما قامت الجمعية المحمدية واثارت احقاد العامة على رجال الاتحاد والترقي بدعوى انهم يريدون ابطال الشريعة المحمدية والديانة الاسلامية نصب الثائرون يوم ثذٍ اول مشنقة لاخت احمد رضا بك رئيس مجلس المبعوثان وكانوا قاصدين ان يشنقوها في مقدمة الذين يشنقونهم من المصلحين لو ظفروا بها بحجة انها تعرض المسلمات على مخالفة الشريعة وعلى سلوك سبيل يحرمهُ الاسلام . فرأت بعد ذلك انهُ ليس من الحكمة مهاجمة اوهام العامة كلها دفعة واحدة وقيل لنا انها عدلت خطتها الآن وعدلت عن كثير مما كانت تعملهُ وتجاهر بهِ قبل تلك الحادثة

فمداراة اوهام العوام تؤخر تنفيذ الدستور ولكنهُ مهما أُخر فتنفيذهُ اوجب واجب والاَّ فلا امل في اصلاح ولا نجاح

فاذا استمر المصلحون على الخطة الحميدة التي ابتدأوا بها من حسن النية والرغبة الحقيقية في الاصلاح واعتصموا بحسن السياسة في اقناع اخطار تعدد الاجناس واختلاف الاديان حق لنا ان نعلل النفس ببلوغ النجاح على شرط ان يستوفوا امرين لم نشتهر بهما نحن الشرقيين لسوء الحظ احدهما الصبر والثبات فقد جرت عادتنا في اعمالنا ان نكد ونجد بهمة فائقة وعزيمة ماضية في بادىء الامر ثم لا يمضي علينا زمن حتى نمل وننفجر وتصفر منا تلك الهمة وتضعف تلك العزيمة وتهمل الامر الذي شرعنا فيهِ او نتركهُ ناقصاً بخلاف الامم الراقية فان رجالهم يثبتون على ما يشرعون بهِ ويدأبون عليهِ مهما لقوا في سبيلهِ من المشقات والعقبات حتى يتموهُ ولو بعد الاعوام الطويلة . والآخر اننا لا نحسن التعاون على الاعمال ولا تنظيم الامور التي يشترك كثيرون في عملها بل اعتدنا ان نعمل اعمالنا منفردين بعضنا عن بعض ولم نعتد ان نتحد جماعات ونعملها معاً ولذلك ترى افرادنا ناجحين في اعمالهم واشغالهم يشاركون افراد الامم الاخرى في ذلك ولكنهم اذا اتحدوا وارادوا التعاون على الاعمال وتنظيم الامور اخفقوا

لانهم يزاحمون بعضهم بعضاً و يعترض بعضهم في سبيل بعض فيخرب قوم ما يبنيهِ الآخرون و ينقض البعض ما يبرمهُ البعض الآخر . ولهذا تجد اعمال الجماعات منا وادارا تنا ومشروعاتنا العمومية متأخرة او مختلة بخلاف ما يشاهد عند غيرنا من الامم الراقية . والاصلاح المطلوب يقتضي استيفاء هذين الشرطين اي الثبات والتأدب والاتحاد والتعاون تمام الاستيفاء . ولهذا نؤمل ان يمتاز بهما المصلحون العثمانيون على سائر الشرقيين حتى يفلحوا في الاصلاح

ومما يقوي الامل بنجاحهم في الاصلاح انهم ادركوا الحاجة في تدارك هذا القصور الى الاستعانة بالخبيرين من الاجانب . فجاويد بك ناظر المالية يستعين بمستشار فرنسوي وهما يدعمان الآن مشروعاً لاصلاح امر الاعشار وغيرها من الامور المالية . ونجم الدين افندي ناظر العدلية يستعين بالكونت استرورجو على اصلاح العدلية والمحاكم وقد أنبئنا انهما هيئا مشروعاً لتعيين قضاة صلح يجولون في البلاد و يفصلون في الدعاوي . واخبرنا الكونت استرورجو الذي يجيد عدة لغات و يعد من اللغويين المستشرقين انهُ يهيئ الآن عدة مشروعات للاصلاح القضائي مطابقة لمجلة الاحكام الشرعية . وسيستعينون بالجنرال فندر جولتز باشا الالماني لتنظيم العسكرية . وعينوا الاميرال غمبل الانكليزي لتنظيم البحرية وكروفرد الانكليزي لجمارك العثمانية وعينوا اخيراً رجلاً بلجيكياً لتنظيم البوستة والتلغرافات العثمانية وهلم جرًّا . وقد اخبرناهم اننا كنا نفضل ان الاستعانة بالاجانب تقتصر على ما لا يتيسر لاصلاحهِ خبيرون من العثمانيين . وفي ما بقي يستعينون اولاً بالعثمانيين ولاسيما العثمانيين الذين شبوا على الاصلاحات المالية والقضائية والادارية واشتهروا في اصلاح البوستات والتلغرافات والجمارك ونحوها في البلدان المنظمة كالديار المصرية . فكانوا يعتذرون عن عدم فعلهم ذلك اعتذاراً اوجبها ان القصد من الاستعانة بالاجانب مزدوج فهو الاصلاح والتنظيم من جهة واكتساب ميل الامم الاجنبية وثقتها من جهة اخرى لما في ذلك من الفائدة للعثمانيين وخصوصاً من دخول الاموال الاجنبية الى السلطنة ومن عمل الاجانب الاعمال العظيمة النافعة فيها . على انهُ مهما كان هذا العذر وجيهاً فظاهرٌ انهُ ليس عذراً مقنعاً ولا يقبل عند اصحابهِ في احوال اخرى مطلقاً . ومن سوء الحظ اننا وجدنا رجال الاصلاح في الاستانة قليلي العلم باحوال العثمانيين خارج تركيا اوربا وبعض الاناضول وغير ملمين بما يمكن ان تجنيهُ السلطنة من النفع من مساعي المقتدرين من هؤلاء العثمانيين لو استعانت بهم . وما ذلك الاَّ لانهُ لم يكن لهم اتصال بهم في الماضي ولقلة اتصالهم بهم الآن فلذلك كنا نطلب منهم في كل مكان ان يرسلوا رجالاً منهم يتعهدون احوال العثمانيين ويتعرفون برجالهم ويعرفون المنزلة

التي وصلوا اليها من العلم والحضارة والثروة سواء كانوا في بلادهم او في البلدان التي هاجروا اليها . فانهم يكتشفون بذلك اموراً كثيرة تساعدهم في اصلاحهم وتعينهم عند احتياجهم الى المعونة

على انهُ مهما سعت الهيئة الحاكمة في الاصلاح وجدَّت وكدَّت واحسنت الرغبة والنية فسعيها يكون قاصراً لا يفي بالمرام ان لم تكن الهيئة المحكومة اعظم عون لها ونصير . فاذا شئنا ان يبلغ المصلحون منا النجاح المرومن الاصلاح وجب ان نساعدهم في اعمالهم بكل امكاننا وان نصير عليهم ونحتمل معهم ونشعر بالاثقال العظيمة الملقاة على عاتقهم ونكون دائماً اقرب الى التماس العذر لهم والدفاع عنهم وتشديد عزائمهم باقوالنا وافعالنا منا الى لومهم واعنائهم وقلة النصير عليهم واظهار ما يضعف عزائمهم . فالواجب على الامة ان لا تنسى مطلقاً ان الاصلاح العثماني اعسر امر في العالم وان القائمين به هم افراد قليلون من ابنائها فاذا لم يجدوا منها كل ما يهوّن عليهم مشقة عملهم ويشدد عزيمتهم ويزيد رغبتهم في خدمتهم خارت عزائمهم وقلت رغبتهم وضاع الاصلاح علينا . ولهذا نرى ايضاً انهُ يجب على الكتَّاب وارباب الاقلام منا ان يسيروا على غاية الحكمة في لومهم وتقدهم فيحفظوها الى الوقت الذي يجب فيهِ اللوم حرصاً على المصلحة العمومية ويجب فيهِ النقد اصلاحاً لخطاء يضرُّ بالجمهور . ولا يلجأوا اليهما في غير هاتين الحالتين حذراً من ان يتقلبا بالشر على الامة عوضاً عن الخير . اذ من اسباب تأخرنا نحن الشرقيين ان العاملين النافعين منا يكونون دائماً قليلين واما الناقدون واللائمون فيكونون كثاراً لا يحصون

والخلاصة ان الامل في الاصلاح والنجاح قوي اذا ظلت الاحوال الداخلية والخارجية موافقة لها ولكنهما يقتضيان زماناً اطول مما يظنهُ اكثر العثمانيين . اما نحن فغاية ما نؤمل ان نراهُ في حياتنا هو اصلاح في الامن العام وفي العدل في الاحكام وفي الحرية والامور المالية والاحوال العمومية . واما الزمان الذي فيهِ ينتشر العلم بين طبقات الامة ويبلغ الاصلاح الغاية التي عندها ينفذ الدستور كلهُ فعلاً فتتساوى النحل والملل العثمانية في كل مزاياهُ وفي تدبير امورها وتزول من بينها الحواجز والفواصل الحائلة الآن دون اتحادها ويصير العثماني يشبه نفسهُ بابناء كل امة دستورية في التمتع بانعم الدستورية — فهذا الزمان لا تصل اليهِ في حياتنا وربما لم يرهُ ابناؤنا بل يكون من نصيب احفادنا او نصيب اولادهم بعدهم . ولا غرابة في ذلك ولا مبالغة فما افسدتهُ الدهور لا يصلح في زمان قصير وحياة الامة لا يطول في جنبها تعاقب احقاب قليلة - انتهى

فارس نمر